التراث الأرثوذكسي

ISSN 1814-7038

السنة العشرون، العدد السابع، نيسان ٢٠٢٤

مختارات آبائية / حياة روحية / كتاب مقدس / لاهوت

الأرشمندريت جورج كابسانيس، القديس يوحنا السلّمي والأحد الرابع من الصوم الكبير

الكسندر بيسكونوف، صعودنا الإلهي، رحلة مليئة بالأمل

المتقدم في الكهنة جاورجيوس سخينوس، المحبة كجوهر النسك في الأرثوذكسية

القديس يوحنا ماكسيموفيتش، افتح لي أبواب التوبة يا مانح الحياة

أنتوني (بلوم) ميتروبوليت سوروج، عظة في أحد القديسة مريم المصرية

عظة (ثانية) في أحد القديسة مريم المصرية

الراهب موسى الأثوسي، الزانية القديسة ومعجزة التوبة

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)، بسلامٍ إلى الرب نطلب

القديس يوحنا السلّمي والأحد الرابع من الصوم الكبير

الأرشمندريت جورج كابسانيس
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إن القديس يوحنا السلّمي، الذي تكرّمه كنيستنا اليوم بشكل خاص، هو هبة الله الثمينة لكنيستنا، لأنه ترك لنا إرثاً قيماً، السلَّم، الذي يعلّمنا من خلاله أمرَين عظيمين.

أولاً: أن التقدم في الحياة الروحية يجب أن يتم كأحد العلوم، لا بدون خطة، ولا ارتجالاً، ولا بدون ثبات، بل بالعناية والجهاد للتخلّص من الأهواء والتعرّف على الفضائل.

وثانياً، في هذا الصراع لا يمكن للمرء أن يصل إلى الكمال بين لحظة وأخرى، بل يجب عليه أن يرتقي بالفضائل تدريجياً، ويتبعها، ويرغب فيها، ويصلي من أجلها حتى يصل إلى أعلى فضيلة، وهي المحبة.

ويقدّم لنا القديس يوحنا ثلاثين درجة على سلم الفضائل، الذي يجب أن يصعده الراهب والمسيحي المجاهد.

إنها رسالة مهمة ليس فقط للرهبان، بل أيضاً للمسيحيين المجاهدين في العالم، ألا ننسى، بانشغالنا بهموم الحياة، أن الهدف الرئيسي لحياتنا هو كمالنا. إنه اتحادنا مع الله. إنه تطهيرنا من الأهواء. إنه النضال الروحي. ويجب أن يتم ذلك، كما قلت، بثبات وبالجهاد اليومي وبالتوق إلى الله.

إن هذه هي المهمة الرئيسية للرهبان ويجب ألا ننساها، خاصة نحن الذين خرجنا إلى البرية. فمن أجل هذا النضال خرجنا. والمسيحيون في العالم، الذين يعانون من الظروف التي هم فيها، والذين بالطبع لا يتمتعون بالراحة التي يتمتع بها الرهبان، ولا الوقت الذي يتمتع به الرهبان، إنما يمكنهم أيضاً تخصيص بعض الوقت في حياتهم للاهتمام بتقدمهم الروحي ونموهم وتنقيتهم من الأهواء والاستنارة بالله.

وهناك مسيحيون في العالم اليوم يتممون هذا الجهاد بمعونة الله، ولا يجرفهم ما هو مؤقت وفانٍ فينسوا الأبدي والدائم، بل هم قادرون على الجهاد في العالم من أجل خلاصهم واتحادهم بالله. وسوف يكون لهم أجر عظيم.

لأنه أمرٌ في غاية الصعوبة، في وقت يجهد كل شيء لتقسيم الإنسان، وإخراجه إلى الانفلاش، لا إلى محبة الانكفاء على الذات، بل لأن يكون منهكاً دائماً من التعلق بما هو دنيوي، ثانوي، أرضي، عبثي؛ ومع ذلك، يوجد مسيحيون اليوم، من محبتهم لله، يجاهدون ويتغلبون على هذا الانبساط وهذا الانفلاش والتعلّق بالأرضيات الفانية، من أجل خلاصهم، ومن أجل محبة المسيح، ومن أجل اتحادهم بالله.

نحن الرهبان لدينا أيضاً هذا الهدف الوحيد. يجب ألا ننسى "من أين أتينا"، وعلينا أن نخوض هذا النضال كل يوم. لا ندعنَّ اليوم يمر دون أن نتمّ هذا الصراع. إن الجهاد يهدف إلى التطهّر من الأهواء، والجهاد لاكتساب الفضائل والاستنارة. لأنه إذا مر علينا يوم من حياتنا لم نمارس فيه هذا الجهاد، يكون ذلك اليوم قد ضاع. ولهذا السبب نرى في أخبار الآباء (Gerontikon) وفي سير القديسين أنَّ في نفوسهم اهتماماً لا يهدأ لإتمام هذا الجهاد، حتى اللحظة الأخيرة.

وتذكروا الأنبا سيسوي الذي جاء وقت رحيله من هذا العالم وتوسل إلى الله أن يتوب لمدة نصف ساعة أخرى. لقد تاب طوال حياته، لكنَّ ذلك لم يكن كافياً له. فطلب نصف ساعة أخرى للتوبة. وبعد ذلك جاءت جوقة الأنبياء والرسل والمسيح نفسه ليأخذوا روحه المباركة المجاهدة.

لهذا أصلي، ببركة القديس يوحنا السلمي، معلم كنيستنا العظيم، صاحب كتاب السلم الأكثر قراءة والمفضل لدى المسيحيين والرهبان الكاملين. أنت لا تحتاج كتاباً آخر للفصل الأول، ولا كتاباً آخر للصف الأخير من الجامعة الروحية، لأن السلم فيه كل شيء.

إنه أيضاً كتاب الحروف الهجائية للمبتدئين، كما أنه أيضاً كتاب الكمال، لأنه يحتوي على حكمة روحية، تلقاها القديس من تجربته الشخصية وجهاده في الحياة الروحية، ولكن أيضاً من خبرته كشيخ ورئيس دير. من الإخوة الرهبان، الذي صوَّرهم في كتابه.

ولهذا قلت إن السلم، الذي نقرأه حتى خلال الصوم الكبير في الأديرة، هذا السلم هو هبة عظيمة ثمينة من الله لكنيستنا، وإذا لم نمتلكها، سنصبح أكثر فقراً. لهذا السبب حرصت العناية الإلهية على وجود مثل هذه المساعدات الإلهية العظيمة، حتى نتمكن من التعلّم والانقياد إلى الخلاص.

ببركة القديس يوحنا السلّمي، لنُصلِّ إلى الله، لأن الكسل يجعلنا بليدين بشكل مضاعَف فننسى "من أين أتينا"، وننسى السهر والبحث الروحي عن صعودنا على سلم الفضائل، إذ إن كلمة الرب تقول: "اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة".

هذه هي سِمات الراهب والمسيحي الأرثوذكسي. يجب أن تكون اليقظة، لأننا في كل لحظة في خطر الوقوع في غرور أشياء العالم القابلة للفناء ونسيان مصيرنا الأبدي ورسالتنا التي هي راحتنا في حضن الله القدوس.

ببركة القديس يوحنا السلمي، فلنكن أقوياء على مواصلة الجهاد إلى أن نحتفل بعيد الفصح المقدس، لا بل أيضاً بعد الفصح المقدس، بالسهر والصلاة دائماً. آمين.

Source: Αρχ. Γεώργιος Καψάνης. Ο Αγιος Ιωάννης της Κλίμακος και η Δ' Κυριακή των Νηστειών. Κοινωνιας Ορθοδοξιας. 29 Μαρτίου 2020. https://www.koinoniaorthodoxias.org/martiria-kai-didaxi/o-agios-ioannis-tis-klimakos-kai-i-d-kyriaki-twn-nisteiwn/

صعودنا الإلهي، رحلة مليئة بالأمل

الكسندر بيسكونوف
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

يحاول الناس العثور على السعادة طوال الوقت. إن البحث عن السعادة هو جزء من طبيعتنا. في الإنجيل، وعد الرب رسله، وبالتالي وعدَنا جميعاً، "حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ دائم". ومع ذلك، في كثير من الأحيان، يجد الناس أن سعادتهم لا تدوم، وأن عزاءهم وراحتهم مجرد وَهْم. فيواصلون البحث في مكان آخر وهُم محبَطون، وبقدر ما يبحثون، يفقدون سلامهم وراحتهم. فتتحول حياتهم إلى فراغ لا نهاية له لا يعرفون كيف يملؤونه. إن الفرح الأبدي الذي يعِد به الرب جميع أبنائه بعيد عن متناولهم.

إذ نحتفل بيوم أحد القديس يوحنا السلّمي في الأسبوع الرابع من الصوم الكبير، تدعونا الكنيسة لنفحص ما إذا كنا نبحث عن الفرح الموعود في المكان الصحيح. هل نعطي أهمية كبيرة للأشياء المادية؟ هل نسمح لعواطفنا الخاطئة أن تأخذنا أسرى؟ إنها تذكّرنا بأن نوجّه أعيننا إلى الله، ونشعر بحضوره فينا، ونصلي من أجل أن تدوم علاقتنا معه وتتعمق.

في كتابه الممتاز "السلم إلى الله"، يتحدانا القديس يوحنا السلّمي بأن نخرج من منطقة راحتنا وننطلق في رحلة روحية. إنه يحضُّنا على الارتفاع فوق خطيئة العالم. ويصور الرحلة التي أمامنا في صورة سلم من ثلاثين درجة.

إن صعودنا السلمَ هو مشروع العمر. التقدم طويل وشاق، والإغراءات كثيرة. ومع ذلك، فهي لا تزال رحلة رجاء عظيم، لأنها تقودنا إلى الرب وملكوته السماوي. إن سلّم يوحنا السلّمي يشبه السلم الذي رآه يعقوب النبي في رؤياه في بيت إيل: قمّته تصل إلى السماء وملائكة الله تصعد وتنزل عليه. إنه ليس مثل جبل الرياضي اليوناني سيسيفوس، الذي حُكم عليه بدحرجة صخرة لبقية حياته، فقط لرؤيتها تنهار من القمة.

كما يظهر في أيقونة القديس يوحنا السلّمي، فإن العديد من الناس يصعدون السلم نحو المسيح. يمكننا أن نرى عدة شخصيات غامضة تسحب بعض هؤلاء الناس من على السلم، وهذه تمثل الشياطين والقوى الشيطانية. ومع ذلك فإن الرب ينتظرهم في القمة. الملائكة القديسون يسلمون عليهم. والقديس يوحنا السلّمي نفسه واقف وسط إخوته يصلي من أجل الذين على السلم أن يثبتوا في صعودهم الإلهي.

كلُّ يوم في رحلتنا الصيامية المستمرة يشبه صعود سلم القديس يوحنا السلّمي. عندما نتحلى بالصبر في صومنا، ونكثّف حياة صلاتنا وننخرط في أعمال الرحمة، نقترب من جائزتنا في السماء، حيث ملائكة الله وجميع القديسين الذين يساعدوننا يقومون بهذا العمل الروحي.

نأمل أن تصبح رحلتنا الروحية لصعود السلم أفضل وأكثر شبهاً بالمسيح كل يوم. في بعض الأيام، قد نجد أنفسنا خارج المسار، أو مشتتين، أو ربما لسنا على السلم. لكن الرب يمنحنا دائماً فرصة للقيام بعمل أفضل. فيرسل لنا نعمته لمواصلة صعودنا والترحيب بنا في ملكوت السماوات.

Source: Alexander Piskounov. Our Divine Ascent, a journey full of hope. Essays and interviews. Sunday of John Climacus. March 27, 2023. St. Elisabeth Convent. https://obitel-minsk.org/en/sunday-of-john-climacus

المحبة كجوهر النسك في الأرثوذكسية

المتقدم في الكهنة جاورجيوس سخينوس
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في منتصف الصوم الكبير، تضع كنيستنا أمامنا شخصية الناسك العظيم وكاتب الكنيسة القديس يوحنا السينائي. إنه مؤلّف كتاب السلم، وهو كتاب نسكي موجّه بشكل رئيسي إلى الرهبان، لكنه يناسب كل مسيحي مجاهد، لأنه يصف الأهواء وكل الفضائل المقابلة لها، حتى نصل في رحلة هذا العالم إلى كمال الفضيلة. بلوغ المحبة، بلوغ اللاهوى.

ولكن، لأننا في كثير من الأحيان نعتبر بعض الأشياء أمراً مفروغاً منه، أود أن أتحدث عن ما هو مفروغ منه.

نحن نتحدث عن ناسك عظيم يأتي إلينا بعد منتصف الصوم الكبير بقليل، ويظهر في كنيستنا. وهو كاتب نسكي، يتكلم عن النسك والتطهّر من الأهواء، وكل هذه الأشياء الجميلة.

لكنْ في كثير من الأحيان، عندما يسمع المسيحيون كلمة "النسك"، تروح أذهانهم نحو عملية عسيرة، يتخيّلون أنها بائسة وغريبة بعض الشيء. عندما يسمع المسيحيون عن "الأهواء" التي يجب أن يتطهروا منها، غالبًا ما يخافون قليلاً، ويشعرون أن شيئًا غير سار قد بدأ عندما يبدأ أحدهم في ممارسة ذلك. وعلى العكس من ذلك، تقول لنا نصوص الكنيسة في بداية الصوم الكبير: "لنبدأ زمن الصوم مشرقًا".

قديسو الكنيسة، آباء الكنيسة القديسون، يتحدثون عن النسك بفرح. إنهم يتحدثون عن جهاد تطهير أهوائنا بحماس خاص، بحرارة خاصة، وبتناغم خاص.

وقد يتساءل أحدهم: لماذا نحن اليوم، نحن المسيحيين الأقل نسكًا، نرتعد عندما نسمع عن النسك؟ نشعر بعدم الارتياح إلى حد ما. لأن حقيقة عظيمة في إيماننا قد غابت عنا أيها الإخوة.

القديس يوحنا السلّمي يلخص هذه الحقيقة في ثلاث كلمات: "العشق يغلب العشق" أي أن حبًا ما ينتصر عليه حب آخر أعظم. ما الذي يجعلنا مرتبطين بأهوائنا؟ لقد وقعنا في حبها!

في حالتنا الساقطة والعاطفية أصبحنا نحبّ أهواءنا ونحتضنها بقوة. نحن واقعون في حب أهوائنا، نَهَمِنا، زنانا، كبريائنا، أنانا، تفاهتنا، وما إلى ذلك.

وكيف يمكن أن نشفى من هذه؟ أبالمتطلبات القانونية الرسمية فقط؟ مثل: يجب ألا تكون عبداً لمعدتك، يجب ألا تكون شرهاً، يجب ألا تكون زانياً، يجب ألا تكون متفاخراً؟ كل هذه الأمور جيدة، لكن لدي شعور بأنها غير قادرة على ملء شخص ما بالرغبة الجادة في التخلص من هذه الأهواء.

وهنا يأتي القديس يوحنا السلمي الذي يقول لنا، أنه لكي نتوقف عن محبة هذه الأشياء، محبتنا لأهوائنا الأرضية، يجب أن تدخل في قلوبنا محبة أعظم!

فجأة، لا يعود نسكنا يتعلّق بتجنّب بعض الأهواء. ولا يمكن أن نقول إنه اقتداء بالأعمال الصالحة أو الفضائل، بل يتغيّر منظور نسكنا دون أن يكون هذا المنظور للنسك بديهياً.

يمكنني القول إنَّ نسكنا يبدأ بمشابهة جهدِ مَن وقع في الحب للتقرب من الشخص الذي وقع في حبه.

اسمحوا لي أن أقدّم هذا المثال، دون الإساءة إلى أي شخص. يقع رجل ما في حب امرأة. ماذا يفعل؟ يدور حول منزلها، يقصدها ليتحدث معها، وفي الوقت المناسب يكتسب حصارُها معنى أكبر.

هذا هو النسك عندما نمارسه بدافع المحبة. من باب محبة مسيحنا وتشريفه[1].

يكتسب النسك الآن طابعًا ديناميكيًا، هو ليس مجرد الامتناع عن الشر أو فعل الخير، بل هو شيء أكثر من ذلك، إنه جهاد النفس لحصار المسيح ووضعه في داخلنا وتتويجه في قلوبنا.

هذا هو ما يغير شخصية الناس. تخيلْ أن شخصًا ما يقول لك: "افعل هذا! افعل ذلك! لا تفعل هذا! لا تفعل ذلك!" إنه يخلق ردَّ فعل بشكل عفوي، وفي كثير من الأحيان يفعل الناس عكس ما يُطلب منهم أن يفعلوه. ولكن بعد ذلك يأتي إليك شخص محبٍّ ويقول: "إذا كنت تحبني، فلا تخيبْ ظنّي، ولكن من فضلك افعلْ هذا". يتغير مزاجك على الفور. هذه الحقيقة يقدمها لنا القديس يوحنا السلمّي. ربنا يسوع المسيح نفسه يقول هذه الأمور أيضًا: "إن كنتم تحبونني تحفظون وصاياي".

وهكذا يجعل المحبة تجاه شخصه هي التي تنتصر على المحبة الباطلة التي تبعدنا عن طريق وصاياه. لذلك، يجب على المسيحي أن يمارس نسكه على هذا المنوال، يمارس جهاداته الروحية كنظام محبة. تنافسٌ في العشق! لهذا السبب ليس هناك أي تشابه بين نساك كنيستنا والأشخاص غير المألوفين، الغريبين، أو، سامحوني على استخدام هذا التعبير، العانسات القدامى والعازبين القدامى. ليس لدى نساك الكنيسة الأرثوذكسية هذه "الغرابة"! لماذا؟ لأنهم في الأساس أناس محبّون.

إنهم واقعون في الحب وعاشقون. إنهم أناس يحبون، وهذه المحبة تتدفق من قلوبهم نحو المسيح، ويبذلون أنفسهم بشكل متزايد لجهادات أكبر، ونسك أكبر، وحصار أكبر للمسيح. نحن أيضًا، يا إخوتي، فلنحاصر المسيح بهذا اليقين. من الآن فصاعدًا، صومنا وصلواتنا وركوعنا وسجودنا وكل ما نفعله محبة قريبنا، تجنب الإدانة، وكل هذه الأشياء الصالحة، فلنمارسها كنتيجة لمحبتنا للمسيح.

وماذا سيحدث؟ سوف تبدأ من محبة أولية للمسيح من خلال الدخول في مثل هذا الجهاد، وكلما حاولت بهذه العقلية، سوف يتسع قلبك. سوف تصبح أكثر رحابة وتحتضن جميع الناس.

عندها تبدأ بالشعور بالمحبة الأولية للمسيح، وتشعر بها بشكل أعمق وأوسع، فأنت تحتضن كل الناس، وتحتضن الأرض والسماء، وأنت تتحول إلى محبة إلهية، وإنسانًا كونياً.

إنك تصبح إنسانًا يرتفع فوق الحدود المكانية والزمانية التي على هذه الأرض، وتكون قادرًا على احتضان كل شيء، وتصبح تمامًا مثل قديسي كنيستنا، مثل القديس يوحنا السينائي، الذي اكتسب مثل هذه المحبة، هذا العشق للمسيح، وهكذا استطاع أن يتخلى عن محبته الأخرى للأشياء الأرضية.

[1] العبارة في النص الأصلي هي فيلوتيمو φιλότιμο وهي كلمة يونانية مركبة من φιλό أي صديق و τιμο أي شرف أو تشريف. لا يوجد كلمة واحدة تحل محلها إذ إنها في العقلية اليونانية تصف مجموعة من الفضائل معاً (المترجم).

يمكن القول إنك أصبحت مثل القديس الشهيد غريغوريوس الخامس[٢]، الذي تغلّب على محبته للحياة الأرضية بمحبة أخرى، محبة المسيح، محبة الاعتراف بالإيمان بالإنجيل الذي جاء المسيح ليبشر به، وخَتَمَه بدمه. لقد كان لديه مثل هذا العشق للمسيح دون خوف، مما جعله شهيد الإيمان والاعتراف، ولهذا السبب نحتفل اليوم بذكراه.

فلنصلِّ من أجل أن تلتهب قلوبنا جميعًا بهذه المحبة الإلهية، وكل ما نفعله في الكنيسة، فلنفعله بطريقة المحبّين والعاشقين. آمين.

Source: Πρωτ. Γεώργιος Σχοινάς. Η αγάπη ως ουσία της Ασκητικής της Ορθοδοξίας. Ομιλία, Σάββατο 9 Απριλίου 2016, στην αγρυπνία, Ιερό Ναό Ευαγγελιστρίας Πειραιώς. Πνεύματος Κοινωνία.
http://pneumatoskoinwnia.blogspot.com/2016/04/blog-post_13.html

[٢] كان الشهيد غريغوريوس الخامس بطريكاً للقسطنطينية، ألقى الأتراك القبض عليه بعد اندلاع الثورة في اليونان ضدهم سنة ١٨٢١، وعرضوا عليه أن ينضمّ إلى الإسلام بمقابل إطلاقه سالماً، فرفض. فعلقوه على بوابة البطريركية التي لم تزل مغلقة إلى اليوم. ثم استقدموا مجموعة من اليهود أنزلوه ومثّلوا بجسده ثم رموه في البحر حيث التقطه بعض المؤمنين ونقلوه إلى روسيا ثم إلى اليونان، حيث توجد رفاته في الكاتدرائية الرئيسية في أثينا. عيده في ١٠ نيسان. (المترجم)

افتح لي أبواب التوبة يا مانح الحياة

القديس يوحنا ماكسيموفيتش
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

من الصعب أن يتوب المرء ويتغيَّر داخلياً ويولد من جديد. ما نحتاجه هو وعي ضرورة التغيير والرغبة فيها، وكذلك نحتاج المعونةَ المملوءة نعمةً. كلما بدأنا التوبة بوعي وعزمٍ أشد، نفتح أبواب النفس بشكل أوسع، ونزداد نجاحاً في تحقيق الهدف.

كنموذجٍ لإعادة الولادة الكاملة نجدُ القديسة مريم المصرية، الخاطئة المعروفة في جميع أنحاء الإسكندرية منذ الطفولة. حيثما اجتمع الناس - كانت تتواجد هناك بينهم لارتكاب الخطيئة. ولما كانت بين الحجاج القادمين إلى أورشليم، ليس من أجل الله بل من أجل اللهو والخطيئة، أربكت الجميع بسلوكها.

ذهب الحجاج إلى الهيكل وكانت معهم. دخل الجميع فيما لم تستطع هي الدخول، ولأول مرة في حياتها شَعِرت بالحرج. لقد صارعت هذا الشعور وحاولت دخول الهيكل بالقوة، ولكن دون جدوى: كونها كانت مقيدة بحياة خاطئة، لم تتمكن من دخول الهيكل المقدس. من ثمّ دخل إلى نفسها الخزيُ والخجل من نفسها وحياتِها.

في حيرة من أمرها، صلّت تائبة لأول مرة أمام أيقونة والدة الإله، وفتحت لها والدة الإله الفائقة القداسة أبواب الهيكل. في الصباح، كانت في القداس وبعد أن تناولت الأسرار المقدسة، ذهبت مباشرة من الهيكل إلى البرية، بعد أن اشترت ثلاثة أرغفة من الخبز في طريقها.

وبعد سنوات عديدة وجدها الراهب زوسيما. أخبرته عن حياتها وألم محاربة الخطيئة والولادة من جديد. كانت تلك العذابات ثقيلة جدًا، وكانت هجمات التجارب مُباغتةً جدًا لدرجةِ أنها سقطت على الأرض. ثم حلَّت أيام السلام والنور، وباتت مريم هادئة. طلبت من القديس زوسيما أن يأتي إليها بعد عام ويناولها. جاء ورآها عبر النهر. عبرت إليه ماشية على الماء وتناولت وطلبت منه أن يعود بعد عام. عاد فوجدها ميتة، وبجوار جسدها كان مكتوباً اليوم الذي ناولها فيه الراهب زوسيما قبل عام.

هذا مثال على التصميم الحثيث لتغيير الحياة بالتوبة، وحدة الصراع مع الخطايا. هذا نموذج للتطهّر والولادة الجديدة.

"افتح لي أبواب التوبة يا واهب الحياة."

Source: St. John Maximovitch. Open to Me the Door of Repentance, O Giver of Life. Translated by John Sanidopoulos. Mystagogy Resource Center. https://www.mystagogyresourcecenter.com/2023/03/open-to-me-door-of-repentance-o-giver.html

عظة في أحد القديسة مريم المصرية

أنتوني (بلوم) ميتروبوليت سوروج

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

باسم الآب والابن والروح القدس

أسبوع بعد أسبوع نشعر أننا نقترب أكثر فأكثر من قيامة المسيح المجيدة. ويبدو لنا أننا نتحرك بسرعة، من الأحد إلى الأحد، إن جاز التعبير، نحو اليوم الذي ستختفي فيه كل المخاوف، كل الأهوال.

ومع ذلك، ننسى بسهولة أنه قبل أن نبلغ يوم القيامة، يجب علينا، مع المسيح ورسله، أن نسير على طريق الصلب. "ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان سيُسلَّم إلى أيدي الناس فيصلبونه، وفي اليوم الثالث يقوم". كل ما نلاحظه هو أنه سيقوم. ولكن هل فكرنا يومًا في الطريقة التي ذهب بها التلاميذ إلى أورشليم وهم يعلمون أن الصلب قد اقترب؟ كانوا يتحرّكون بخوف. لم يكونوا ناضجين بعد بما يكفي ليكونوا أولئك المستعدين أن يضحوا بحياتهم لتنتشر الرسالة. كانوا يتحركون في خوف. وعندما أخبرهم المسيح أنهم ذاهبون الآن إلى أورشليم، عائدون إلى المدينة التي كانت آنذاك قد جحدت المسيح، وعرّضت حياته للخطر، قالوا له: "دعنا لا نذهب". وتلميذ واحد فقط، وهو توما، قال "لا. فلنذهب معه ونمُت معه".

هذا التلميذ هو الذي نسميه المشكك، وأعتقد أننا نسميه كذلك عن جهالة. إنَّه الشخص الذي لم يكن مستعدًا لتسليم ثقته وإيمانه وحياته ودمه لله دون يقين. ولكنَّ قلبه كان للمسيح بلا تحفظ. كم هو رائع أن يكون المرء مثل هذا الرجل! لكن التلاميذ الآخرين لم يهجروا المسيح. وساروا نحو أورشليم.

ولدينا اليوم مثال آخر لشخص مرّ بمأساة قبل أن يقابل المسيح. إنها مريم المصرية. كانت خاطئة وعاهرة. خانت الله في نفسها وفي جسدها. ولم تكن تحترم هذه النفس وهذا الجسد الذي خلقه الله. ومع ذلك فقد واجهت بشكل مأساوي حقيقة أنه ما مِن سبيلٍ لها للدخول إلى هيكل الله إلا إذا رفضت الشرّ واختارت الطهارة والتوبة وجدة الحياة.

فلنتأمل في التلاميذ الذين كادوا أن يتوسلوا إلى المسيح ألا يعود إلى أورشليم، لأن أورشليم كانت المدينة التي فيها مات جميع الأنبياء؛ ولم يكونوا يريدون أن يموت المسيح، وكانوا خائفين. فلنسأل أنفسنا إلى أي درجة نشبههم؟ فلنسأل أنفسنا بحرية اليوم كيف نشبه أو لا نشبه مريم المصرية – مريم التي عاشت حياتها بحسب طرقها ورغباتها الخاصة، واتبعت كل تجارب جسدها وروحها؛ وفي أحد الأيام أدركت أنها لا تستطيع دخول هيكل الله.

إننا ندخل الهيكل الإلهي بسهولةٍ، وبسهولةٍ أيضاً ننسى أن الكنيسة التي نأتي إليها هي جزء صغير من عالمٍ اختار أن يكون غريبًا عن الله، ورفض الله، وفقد الاهتمام به؛ وأن المؤمنين القلائل قد صنعوا لله ملجأً – نعم، الكنيسة هي ملء السماء، وفي نفس الوقت مكان ملجأ مأساوي، فهي المكان الوحيد الذي يحق لله أن يكون فيه لأنه مرغوبٌ في هذا المكان. وعندما نأتي إلى هنا، ندخل إلى العالم الإلهي. يجب أن ندخل إليه بشعور من الرهبة، لا أن نَلِجه كما لو أنه أي مكان، بل أن ندخل إليه كمكان هو الملكوت الإلهي بالفعل.

لو كنا نفكر بهذه الطريقة لكنا، عند وصولنا إلى أبواب الكنيسة، فكرنا وتصرفنا ولو قليلاً مثل مريم المصرية. كنّا سنتوقف ونقول: "كيف يمكنني الدخول؟" وإذا فعلنا ذلك من كل قلوبنا، منكسري القلوب، ومع شعور بالرعب من حقيقة أننا بعيدون جدًا عن الله وغرباء للغاية وغير مخلصين له، فعندئذٍ ستفتح الأبواب وسنرى أننا لسنا ضمن مجرد مساحة كبيرة محاطة بالجدران ولكننا في فضاءٍ هو سماء الله التي نزلت إلى الأرض.

فلنتعلم إذًا من هذه التجربة ما يعنيه السير خطوة بخطوة نحو القيامة، إذ لكي نصل إلى القيامة، علينا أن نمر عبر الجلجثة، يجب أن نمر بمأساة أسبوع الآلام ونجعلها مأساتنا، مشاركين المسيح وتلاميذه والجموع من حوله في رهبتها ورعبها. ونختبرها أيضًا كنارٍ محرقة تحرق فينا كل ما لا يستحق الله وتطهرنا. وربما في يوم من الأيام، عندما تحرق النار كل ما لا يستحق الله، قد يصبح كل واحد منا صورة للعليقة المشتعلة، ملتهبة بالنار الإلهية ولا تحترق، إذ فقط مَن يحتمل نار الله هو مَن سينجو من بيننا. آمين.

Source: Metropolitan Anthony Sourozh. Sunday of St Mary of Egypt. 16th April 2000.
https://www.mitras.ru/eng/eng_110.htm

عظة (ثانية) في أحد القديسة مريم المصرية

أنتوني (بلوم) ميتروبوليت سوروج

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

باسم الآب والابن والروح القدس

في الأحد الخامس من الصوم الكبير، نتذكر القديسة مريم المصرية، وهي تستطيع أن تعلمنا الكثير مما نحتاج إلى معرفته. لقد كانت خاطئة ومعروفة، فتنةً وفضيحةً للرجال. كيف صارت خاطئة؟ لا نعلم؛ هل كان فيها شر، هل تم إغواؤها أو اغتصابها، وكيف أصبحت زانية، لن نعرف أبداً. ما نعرفه على وجه اليقين هو أنها جاءت ذات يوم إلى كنيسة والدة الإله – صورة الكليّة الكاملة – وشعرت فجأة بأنها لا تستطيع دخولها. لا نحتاج إلى أن نتخيل قوة خارقة تمنعها من عبور العتبة؛ ربما كانت القوة – بالتأكيد – داخلها. شعرت أن العالم مقدس للغاية، وأن شخص والدة الإله مقدس جداً لدرجة أنها لا تجرؤ على السير في حضرتها والوقوف في حرم الكنيسة.

كان هذا كافياً لها لتدرك أن كل الماضي كان ظلاماً، وأن هناك طريقة واحدة للخروج منه: التخلص من كل شر وبدء حياة جديدة. هي لم تخرج طلباً للنصيحة، ولم تذهب للاعتراف؛ خرجت من المدينة إلى الصحراء، إلى الصحراء الحارقة حيث لم يكن هناك سوى الرمال والحرارة والجوع والوحدة اليائسة.

يمكنها أن تعلمنا شيئاً عظيماً جداً. كما كرر القديس سيرافيم ساروف أكثر من مرة للذين جاءوا لرؤيته، فإن الفرق بين الخاطئ الضال والخاطئ الذي يجد طريقه إلى الخلاص لا يكمن في شيء سوى التصميم. نعمة الله موجودة دائماً؛ لكن استجابتنا ليست كذلك. أمّا مريم فاستجابت؛ من خلال الرعب الناتج عن تصورها الجديد لذاتها، استجابت لقداسة والدة الإله، ونعمتها، وكمالها وطهارتها، ولم يكن هناك شيء، أي شيء يُستكثَر على تغيير حياتها.

سنة بعد سنة، في الصوم والصلاة، في الحر الحارق، في الوحدة اليائسة في الصحراء، حاربت كل الشر الذي تراكم في روحها؛ لأنه لا يكفي أن ندرك الشر، ولا يكفي حتى أن نرفضه بفعل الإرادة، فهو موجود في ذاكرتنا، في رغباتنا، في ضعفنا، في الفساد الذي يجلبه الشر. كان عليها أن تقاتل من أجل حياتها كلها، وقد انتصرت في نهاية تلك الحياة؛ في الواقع، لقد خاضت الجهاد الحسن، وتطهرت من الدنس، واستطاعت أن تدخل ملكوت الله: لا هيكلاً، ولا مكاناً، بل الأبدية.

بإمكان القديسة مريم أن تعلّمنا الكثير. يمكنها أن تعلمنا أنه بمجرد أن ندرك يوماً ما أن العالم الذي نسير فيه بحرية، أي الكنيسة، أو ببساطة العالم الذي خلقه الله والذي ظل طاهراً من الشر على الرغم من خضوعه

واستعباده للشر بسببنا، هو مقدس جداً بحيث نحن وحدنا لا مكان لنا فيه، فقد نتوب استجابة لهذا الإحساس، أي نبتعد عن أنفسنا في رهبة، وننقلب على ذواتنا بتصميم صارم. من ثم يمكننا أن نحذو حذوها.

إن مثالَها هذا يُقدَّم لنا كلحظة تتويج لربيع الحياة هذا الذي هو الصوم. قبل أسبوع سمعنا تعليم القديس يوحنا السلمي ودعوته، وهو الذي أسس لنا سلم الكمال الكامل للتغلب على الشر والوصول إلى الحق. واليوم نرى شخصاً قد وصل من أعماق الشر إلى قمة القداسة، وكما يقول قانون القديس أندراوس الكريتي: "تيقن أن الله الذي يستطيع أن يشفي الأبرص يستطيع أن يشفي البَرَص الذي عندك".

إذاً، فلنزَ في القديسة مريم تشجيعاً جديداً، ورجاءً جديداً، بل فرحاً جديداً أيضاً، ولكن أيضاً تحدياً ودعوة، لأنه عبثاً نرنّم مديح القديسين إن لم نتعلم منهم ونقتدِ بهم. آمين.

Source: Metropolitan Anthony Bloom. Sunday of Saint Mary of Egypt. 1 April 1990.
https://pemptousia.com/2020/04/sunday-of-saint-mary-of-egypt/

الزانية القديسة ومعجزة التوبة

الراهب موسى الأثوسي

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

منذ ألف وأربعمئة عام مضت، في مكان ما في الإسكندرية بمصر، كان هناك فتاة بالكاد تبلغ اثني عشر عاماً، وقعت في شباك الزنى. لقد بذلت جسدها ونفسها للسقوط والخطيئة والفساد.

عبادة الجسد واللذة الجامحة والشهوة التي لا تشبع سيطرت عليها منذ الصغر. لمدة سبعة عشر عاماً عاشت هذه الحياة بشغف دون موانع أو خجل أو شكوك أو ذنب أو ندم. لقد اعتبرت نفسها حرة ومستقلة لا تُضبَط ولا تُقاوَم. كانت مُعجَبة بجمالها وثرواتها ومفاتنها وإثارتها.

جرى أمر رائع في أورشليم حيث أنها لم تستطع دخول الكنيسة، وهذا ما حملها على أن تركع، أن تبكي، وأن تتذكر براءة طفولتها. بدأت بالبكاء. بدأت تغيير توجُّهها. مُحِبّة الجسد صارت فجأة مُحِبّة لله. راحت تتبدَّل، راح قناعها يسقط، بدأت تحبّ ما هو جميل، وبدأت تقوم. بعد هذا التحول الوجودي غير المُتوقَّع، سيطر على قلبها العشق الإلهي. اكتسبت حياتها معنى عميقاً. إنها بطلة، شهيدة وبارّة.

انطلقت إلى البرية، خلف الأردن، بتصميمٍ وبلا كلل. كانت أفكارها تعود إلى حياتها السابقة ولا تتركها ترتاح ولا لدقيقة. لسبعة عشر عاماً استبدّت بها الأفكار العنيفة والبذيئة. على عدد السنين التي عاشتها في الخطيئة. كاد اليأس أن يتملّكها. صارت كهيكل عظمي من الصوم.

كمثل وحش كانت تدور في الصحراء. صارت الصحراء القاحلة والأرض الغريبة والصخور والكهوف مساكن لها. لثلاث وعشرين سنة أخرى عاشت من دون حرب أفكارها الرهيبة. لقد ذللت أفكارها. الزانية الذائعة الصيت صارت أعظم ناسكة في كل العصور.

خرج الأب زوسيما في رحلة أحد الأصوام إلى داخل البرية ورأى ظلاً يتجول. عندما وجد أنها امرأة غطى عريها بقطعة قماش وعرف منها بتأثّرٍ عن حياتها الجديرة بالاحترام. عاد ليناولها. ثم بعد سنة وجدها ميتة. كانت قد دوّنت على حجر أنها رقدت مباشرة بعد أن تناولت.

ليست الخطيئة مجرد انتهاك للناموس، بل هي غياب محبة الله. الخطيئة دائماً تبدو جميلة جداً، جذابة جداً ومغرية. إنها تأسر الفكر الذي يقبلها ويصير ملتزماً بها. غالباً ما تفرغ الخطيئة النفس من صفائها المبارك. فالعتمة التي تسبق الخطيئة تنقشع عند ارتكابها، فيرى الإنسان عريَه ويتعذب، ويشعر بالندم والتبكيت. ويتدخل الشيطان لكي يصاب الإنسان بالخيبة ولا يطلب التوبة.

وصّف محلل النفس الكبير، القديس يوحنا السلمي، بوضوحٍ مذهلٍ مراحل الخطيئة: الانقضاض، التفاعل، الموافقة، الأسر، المجاهَدة والهوى. يصبح الهوى عادةً أيها الأحباء، ويدفع الإنسان لسنوات طويلة إلى الانجراف دون أن يواجه مقاومة. الخطيئة تظلِم الإنسان. اليوم يُنظر إليها بلا مبالاة، إذ قد أصبحت هي القاعدة، لأن الناس يعتقدون أنهم يفعلون ما يريدون وأنهم أحرار. بغض النظر عن نوع القانون القائم، فإن الخطيئة لا

تتوقف عن كونها خطيئة وتزعج كل شخص شريف وجاد وذي ضمير حي. لقد وصلنا إلى النقطة التي نسمي فيها ما هو غير طبيعي بأنه طبيعي، وهذا تفاهة منطقية. إن نتائج الخطيئة هي: التغرّب والعزلة والفراغ والوحدة واليأس ووجع القلب.

القديسة مريم تساعد بحنانٍ في تغيير الجميع. لقد فشلت كزانية وانتصرت كناسكة. إنها امرأة شديدة الشجاعة. ملهِمة. إنها تؤازر الخطأة. لا تخافوا من الكلمات، بل من الأفعال التي تنتزع السلام. يقترب الصوم من نهايته، وتحثنا مريم الإسكندرية على المضي قدماً دون خوف. إنها تحفّزنا على إعادة التركيز وتخبرنا سرياً أنه حتى العاهرات يمكن أن يصبحن قديسات.

Source: Monk Moses the Athonite. The Holy Harlot and the Miracle of Repentance. Newspaper Macedonia. Translated by John Sanidopoulos. Orthodox Christianity Then and Now. https://www.johnsanidopoulos.com/2015/03/the-holy-harlot-and-miracle-of.html

بسلامٍ إلى الرب نطلب

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

كان حديثنا الأخير مخصصاً لما نبتدئ به القداس الإلهي من مباركةٍ وتمجيدٍ لمملكة الآب والابن والروح القدس. يُخرِج القداس الإلهي الإنسان من حقيقة العالم المحيط ويقوده إلى حقيقةٍ أخرى مختلفة. ومع ذلك فإن هذه الحقيقة موجودة في حياتنا ويختبرها الإنسان كحالة أبدية. وحدهم من اختبروا هذا الأمر بشكلٍ شخصي يمكنهم أن يفهموا تماماً ما الذي أتحدث عنه. إن القداس الإلهي هو حقاً ملكوت الله في الزمان والمكان، أي في الكنيسة، في مجمع المؤمنين.

بعد مباركة مملكة الآب والابن والروح القدس تأتي سلسلة من الطِلبات، والتي عادةً ما يتلوها الشماس إذا كان موجوداً، وإلا فإن الكاهن هو من يقوم بتلاوتا. الطلبة الأولى هي: "بسلامٍ إلى الرب نطلب"، والتي تعني " فلنتضرع إلى الله بسلام الذهن، بسلامٍ في نفوسنا".

بما أن القداس الإلهي كله عبارة عن سلسلة من الطلبات والصلوات الموجهة إلى المسيح، فإن الكنيسة ترشدنا منذ البداية إلى الشرط الضروري للصلاة، ألا وهو السلام الروحي.

وحده من ملأ السلام نفسه يمكنه أن يتضرع إلى الرب. قد يتساءل البعض: "هل من الممكن حقاً أن نقتني سلاماً دائماً في نفوسنا في هذه الحياة؟ لو كنا مثلاً في ليبيا أو مصر أو اليابان، فكيف يمكننا، وسط الصراعات العسكرية والزلازل والفيضانات، أن نقتني سلاماً روحياً لكي نصلي إلى الرب؟ أم لربما تعني هذه الطِلبة أمراً آخر؟". لا شك أنَّ العالم المحيط بالإنسان خارجياً مهمٌ بالنسبة له، والكنيسة تصلي من أجل هذا العالم أيضاً، كما سنرى لاحقاً في الطلبة التي تبدأ بعبارة "من أجل سلام كل العالم...". من المهم أن نحوز السلام في حياتنا وبيوتنا وعائلاتنا. ومع ذلك لا يمكن تحقيق هذا السلام الخارجي دائماً. كما تعلمون من تجربتكم الخاصة، لا بد وأن نمر في كثير من الأحيان بصعوباتٍ مختلفة - عالمية، وطنية، اجتماعية، عائلية وشخصية.

أتذكر القديس باييسيوس الآثوسي الذي كان يقول في أواخر حياته: "إنني رجلٌ مُسنٌّ الآن، ولكني اعتنيت بنفسي إلى حدٍ ما. لذلك فإنني أصلي إلى الله، لا من أجل نفسي بل من أجل العالم، وأخبر الله عن الآلام التي يعاني منها الناس".

لا يمكن للمسيحي أن يبقى غير مبالٍ بآلام البشرية؛ من المستحيل أن نشاهد على التلفاز كل ما يجري من حولنا ونحن "نتثاءب" بلا اكتراث. مع الأسف، قد علمنا "الواقع الافتراضي" أن نضحك كردٍ فعلٍ على ما نشاهده من ضيقات وشدائد. عندما نرى على الشاشة شخصاً ما يقتل شخصاً آخر نظن الأمر مضحكاً. ولكنْ، ما المضحك في ذلك؟

يوم بدأت الحرب في العراق، كنت في إنكلترا، في لندن، مع شيخنا يوسف (الفاتوبيذي)، وكان علينا العودة إلى الجبل المقدس في الصباح التالي. حين سمعنا عن اندلاع الحرب قررنا أن نشاهد ما الذي كان يُقال عنها في التلفاز تلك الليلة. كنا في منزل أحد الأصدقاء. كانوا يعرضون على التلفاز عملياتٍ عسكرية وطائرات مقاتلة وجنوداً وما شابه ذلك. أتذكر أطفال تلك العائلة بوضوحٍ تام – إنهم أولاد صالحون للغاية. جلسوا أمام شاشة التلفاز وفي أيديهم سندويشات وعلب صودا. جلسوا أمام التلفاز يأكلون ويشربون ويشاهدون الحرب تماماً كما لو أنهم يشاهدون مباراة كرة قدم. بالنسبة لهم كأطفال كان ذلك مبرراً، وأما نحن الراشدون فيجب أن يكون لدينا موقف مختلف تجاه الكوارث التي يعاني منها العالم. إن الإنسان الناضج في السن والحياة الروحية لن يسمح لنفسه بأن يبقى منعزلاً عن آلام ومعاناة العالم أجمع. وأظن أنه كلما نجح الإنسان روحياً أكثر كلما شاطر الجنس البشري آلامه.

إذن، عندما توصينا الكنيسة بالصلاة بسلامٍ روحي، فإننا نتساءل بشكلٍ طبيعي: "أين أجد هذا السلام؟ كيف أقتنيه في حين أن الناس من حولي يموتون، وكل شيء يفقد اتّزانه؟". نسمع كل يوم خبراً عن أن ذاك قد مرض وآخر أصابه مكروه والثالث مات والرابع ليس لديه ما يأكل والخامس لا يملك مالاً ليعتني بابنه. أي سلامٍ هذا الذي يمكن إيجاده في عالمٍ كهذا؟ ذاك السلام الذي جلبه المسيح إلى الأرض حين وُلد، وأعلنت الملائكة عنه مرتلة: "المجد لله في العُلى وعلى الأرض السلام". نعم، ولكن عن ماذا كانوا يرنمون؟ في نهاية الأمر، ما إنْ جاء المسيح إلى العالم حتى قامت على الفور عداوة ضده. وقعت مذبحة الأطفال الرُّضَّع وشرور أخرى كثيرة. والمسيح نفسه قال: ما جئت لألقي سلاماً على الأرض بل سيفاً (متى ١٠:٣٤)، أي حرباً. وبالتالي، أي سلام هذا الذي نتحدث عنه؟

كما قلنا، من المهم جداً بالنسبة لنا أن يسود السلام في البيئة المحيطة بنا قدر المستطاع. ولكن، في الطلبة التي نتناولها اليوم نتحدث عن السلام الأصيل الذي وحدَه الله يمنحه للإنسان. ليس السلام حالة نفسية نكون فيها حين تجري الأمور على ما يرامٍ فنقول مِلؤنا التفاؤل: "ما أروع كل ما يحصل معي!"

تقول كلمة الله بوضوح إن المسيح هو سلامنا. المسيح هو السلام. إذا حملنا المسيح في نفوسنا فإننا سنقتني السلام، وإذا لم نحمله فلن نحوز السلام، حتى ولو كانت الظروف الخارجية موائمةً جداً بالنسبة لنا. وهذا هو السبب في أن البيزنطيين بنوا كنائس مُكرسة للسلام المقدس، أي مكرسةً للمسيح. في اسطنبول (القسطنطينية)، بجوار كنيسة الحكمة المقدسة (آيا صوفيا)، توجد كنيسة خشبية جميلة اسما Agia Irini، كانت يوماً ما تابعة لبطريركية القسطنطينية. يظن المؤمنون أنها مكرسة للشهيدة إيريني. ولكنها ليست مكرسة للشهيدة، بل للمسيح، الذي هو سلام العالم أجمع، تماماً كما أن كنيسة آيا صوفيا (الحكمة المقدسة) ليست مكرسة للشهيدة صوفيا، بل للمسيح، الذي هو حكمة العالم. الله الآب خلق كل شيء بحكمته، خلق كل شيء بالمسيح.

لذلك عندما تدعونا الكنيسة لنصلي "بسلام"، فهي تدعونا لنصلي "بالمسيح"، بشركة مع المسيح، لأنه فقط بالمسيح يمكننا أن نقتني سلاماً روحياً أصيلاً. نفقد السلام الخارجي بسهولة حين تتغير الظروف نحو الأسوأ،

ظروف حياتنا وعائلاتنا والمجتمع والوطن والكوكب بأكمله. تتقطع فترات سلامنا الخارجي بصدماتٍ متنوعة، وهي ليست فتراتٍ دائمةً أو طويلة الأمد. من الطبيعي أن تحرمنا الأمراض والأحزان والمِحن المتنوعة من السلام الخارجي. قال المسيح: "سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا" (يوحنا ١٤:٢٧). يعطي المسيح السلام "ليس كما يعطي العالم"، لأن سلام هذا العالم يعتمد على الظروف الخارجية. عندما تجري الأمور على ما يرام من حولي وفي عائلتي وعملي، وعندما أملك مالاً كافياً ولا أعاني من مشاكل صحيةٍ فإنني أنعم عندها بالسلام. هذا سلام عالمي ويتحطم من جراء أي محنة. إن أي تغيير في الظروف يجعل هذا السلام الوهميَّ يختفي بسرعة. كيف يمكننا أن نصلي بسلامٍ حقيقي، بالمسيح؟

لذلك، أيها الإخوة والأخوات، من المهم للغاية أن نتصالح مع ضميرنا، كما يقول المسيح. قد غرس الله داخل نفسنا من يتَّهِمُنا، وهو يَدينا في كل لحظة. هذا المُتَّهِم يُدعى الضمير. إن غرض الضمير هو أن يُعْلمنا كيف نتمم مشيئة الله. كلما استمعنا إلى ضميرنا بانتباهٍ أكثر، بات هذا الضمير أكثر حساسية، وبات يكشف لنا بوضوحٍ أكبر عن تلك الأمور التي لم نكن نفهمها إلى ذلك الحين. عندما لا نصغي إلى صوته ونحيّده قائلين: "لا يهمّني ذلك"، فإن الأمر كما لو أننا نطرق رأس إبرةٍ بمطرقة. ينثلم رأس الإبرة من ضربات المطرقة وتصبح غير قابلة للاستخدام. وهكذا يصبح الضمير عديم النفع عندما نهمله. إن الضمير هو عطية من الله، وقد بقيت هذه العطية معنا بعد السقوط. لذلك يقول الآباء القديسون إن الإنسان يمكنه من خلال الاسترشاد بإملاءات ضميره وحده أن يقترب من الله (إلى درجةٍ معينة على الأقل) – يكفي أن نصغي إلى صوت الضمير فقط ونتسالم معه.

يعلِّمنا المسيح في الإنجيل قائلاً: " كُنْ مُرَاضِيًا لِخَصْمِكَ سَرِيعًا مَا دُمْتَ مَعَهُ فِي الطَّرِيقِ." (متى ٥:٢٥). دعوا ضميركم يتكلم. يمكنكم خداع الآخرين وخداع العالم بأسره، ولكنَّكم لن تستطيعوا أبداً خداع ضميركم. لا تُغضبوه ولا تُضعفوه مطلقاً. اسمحوا له بأن يُكلِّمكم، واحرصوا على أن تتسالموا معه وتصادقوه. قوموا بما يمليه عليكم لتقتنوا السلام في نفوسكم. كل من يتجنب الاستماع إلى صوت ضميره يختلق الأعذار لنفسه، ويناقض مناشدات الضمير بشتى الأعذار، ويجب ألا يتوقع نتيجة حسنة من ذلك. إن زمان هذه الحياة سينقضي قريباً، وقريباً سنبلغ نهاية الطريق الذي يجب أن نتصالح فيه مع خصمنا، كما قال المسيح.

ما مِن إنسانٍ لا يخطئ أو يرتكب خطايا أو يسقط، فمن يمكنه إذاً أن يقتني ضميراً نقياً وسلامياً بشكلٍ مطلق؟ جميعنا، وأنا أولكم، نرتكب الأخطاء ولدينا الكثير من الخطايا ونسقط كل يوم، وليس لمرة واحدة فقط. وحده المسيح كإنسانٍ تمم مشيئة الله بشكلٍ مطلق بحسب مشيئته، و كذلك والدة الإله تممتها بالنعمة. وأما بقيتنا فلدينا نقائص بشرية. كيف يمكن أن نتسالم مع ضمائرنا؟ إذْ في نهاية المطاف كثيراً ما نخطئ ونرتكب خطايا لا يمكن إصلاحها. فلنقلْ إني قتلت رجلاً، كيف أصلح الأمر؟ هل يمكنني أن أقيمه من الموت؟ كلا. هل يمكنني تهدئة ضميري واقتناء سلام الله، والذي هو شرط للصلاة والوقوف أمامه؟ نعم، عبر التوبة. طالما أنه ما من مهربٍ من ارتكاب الخطايا مهما فعلنا، فإننا نبقى غير سعداءٍ وأسرى لأهوائنا. ما هو إذاً سبيلنا إلى الخلاص والعبور من البوابات المُخلّصة؟ أن نكون بلا خطيئة؟ لا. العِصمة؟ لا. ماذا إذاً؟ إنها التوبة. أعطانا الله فرصة لتعلُّمِ فن التوبة العظيم. التوبة هي السبيل الأوحد للخلاص. من المؤكد أن التوبة تسبِّب ألماً في النفس، وخاصةً في بداية

رجوعنا إلى الله. إنها تحرقنا. نشعر وكأننا في أتون، وكأن كياننا بأكمله يذوب. (هذا على الأقل ما يشعر به الإنسان الذي لديه توبة أصيلة مُتَّقدة). ولكنْ، تأتي بعد ذلك نسمة الروح القدس الذي يعزي الإنسان الذي ذرف سيولاً من دموع التوبة.

إن "الأداة" الرئيسية للتوبة، والتي تُنقّي النفس من الأهواء والخطيئة، هي الدموع، البكاء. مهما بدا الأمر غريباً يجب أن نتعلم فنَّ الدموع. علينا تعلُّم البكاء – ليس بغرض الاستعراض، ولا كيفما شئنا، بل يجب أن نبكي أمام الله. على الإنسان المُصلي أن يتعلم البكاء. إنَّ قلبنا القاسي المتصلّب لن يلين ولن ينفتح ما لم نبكِ. ليس البكاء مجرد دموع خارجية تجري من أعيننا. هناك أشخاص لا يحتاجون أسباباً قوية لينفجروا بالبكاء، بل يمكنهم البدء بالبكاء بسهولة كبيرة وبدون سبب. مع ذلك، لا مشكلة في الدموع الخارجية. فلنمتلك الدموع الخارجية على الأقل. ولكن البكاء الذي أريد التحدث عنه هو بشكلٍ رئيسي عمل داخلي. يقول القديس يوحنا السلمي: "رأيت أناساً يذرفون دموعاً غزيرة بسهولة. ورأيت أناساً كانوا يبكون في نفوسهم، فيما أعينهم لم تذرف أي دموع. وإني لأكرّم الأخيرين أكثر من الأولين. كما رأيت أناساً كانوا يبكون لعدم امتلاكهم أي دموع".

لذلك فإن البكاء والدموع هي "الأدوات" الرئيسية لعيش حياة روحية. البكاء يلد السلام في نفوسنا. علينا تعلُّم البكاء.

قال القديس بايسيوس الآثوسي إنَّ الأتراك حين كانوا يجولون ليلاً حول القرية في مسقط رأسه كابادوكيا كانوا يتحيّرون قائلين: "ما هذا؟ هؤلاء الروميون ينوحون على أمواتهم طيلة الليل". كان الأتراك يسمعون صوت البكاء والنحيب ويظنون أن المسيحيين اليونانيين كانوا يبكون ليلاً على أقربائهم الموتى. لم يستطيعوا أن يفهموا أن الناس كانوا يصلون. كان اليونانيون الكبادوكيون أناساً بسطاء وصادقين للغاية. مُتَّبعين تقليد كنيستنا المقدس، كانوا يصلون بدموع وقد حزنوا حقاً على الموتى: على نفوسهم الميتة. علينا نحن أيضاً أن نبكي على نفوسنا بهذه الطريقة.

لكي يقتني الإنسان السلام ولذَّة حضور الله في نفسه، يجب أن يمتلك ألم التوبة الحلو. عليه أن يتعلم أن يفتح قلبه كل يومٍ لمرة واحدة على الأقل لكي تتدفق منه صلاة التوبة، كما يقول كاتب المزامير "أسكب أمامه تضرعي" (مزمور ١٤١:٢). وكأنك تفتح آنية ملآنة فيتدفق منها ألمك وأتعابك الروحية وكل ما في قلبك.

المسيح هو سلامنا وحضوره يملأ نفوسنا بالسلام. يفتقد المسيح الإنسان التائب، ولا يفتقد من لا يتوب حتى ولو كان إنساناً صالحاً. إنه يأتي إلى القلوب التي تختبر المعاناة والألم (من جراء التوبة بشكل أساسي) والتي تطلب رحمة الله.

بالحديث عن التوبة – أتذكر حادثة من حياتي مرتبطة بناسك معاصر، وهو الشيخ فيلوثيوس (زرفاكوس) من جزيرة باروس. عندما ذهبت لزيارته كنت في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمري. كنت طالباً في كلية اللاهوت. لأكون صادقاً، لم تكن لدي رغبة خاصة برؤية الشيخ. وافقتُ على الذهاب فقط لأن صديقاً جيداً من أصدقائي حثني على زيارته وبإصرار شديدٍ لدرجة أني ذهبتُ مُضطَراً تقريباً. كان من المحرج أن أرفض، لأن

صديقي وصلَ إلى حدِّ شراء بطاقة سفرٍ لي إلى باروس. لا مجال للتهرب. ذهبت برفقة طالب آخر. ذهبنا بالحافلة إلى بيريا ومن هناك أبحرنا على متن قارب إلى جزيرة باروس. التقينا بالشيخ فيلوثيوس الذي كان بالفعل قديساً عظيماً.

في ذلك الوقت كنت مصمماً تماماً على الذهاب فوراً إلى جبل آثوس، مباشرة بعد إنهاء دراستي الجامعية. أثناء الاعتراف عند الشيخ أخبرته عن قراري بالذهاب إلى الجبل المقدس.

- قال لي: "اذهب. إلى أين ستذهب هناك؟"
- إلى الأب يوسف
- القبرصي؟ أعرفه منذ زمن طويل

أعطاني الشيخ فيلوثيوس الكثير من الإرشادات الجيدة وقواني روحياً وصلى لي صلاة الحل. وفيما كنت أغادر أضاف:

- "أريد أن أعطيك شيئاً"

العديد من رفاقي في الجامعة كانوا قد قابلوا الشيخ قبلي ببرهة قصيرة وطلبوا منه شيئاً كتذكار منه، والشيخ أعطى كلاً منهم شيئاً ما. أعطى الشيخ أحد رفاقي، وهو شماس، منديلاً وقال: "خذ هذا المنديل. ستحتاجه"

عاد الشباب بهداياهم. أراد الشماس أن يسمع من الشيخ أمراً نبوياً حول حياته وحول مستقبله، وأعطاه الشيخ مجرد منديل قديم. خاب ظن الشماس بشكل واضح. ولكنْ، ماذا كان معنى ذلك المنديل برأيكم؟ كان معناه الدموع! وبالفعل، فإن ذاك الشماس المسكين كان عليه أن يواجه الكثير من الأحزان والتجارب في حياته، وقد ذرف نهراً من الدموع.

لذلك، عندما قال الشيخ إنه يريد إعطائي شيئاً، شكرته وفكرت: "أتساءل ماذا سيكون هذا الشيء". نهض بصعوبة (كان حينها في السنوات الأخيرة من حياته) وبدء بفتح الدروج باحثاً عن شيء يناسبني. تذكرت زميلي الشماس وقلت:

- يروندا، ليس عليك أن تبحث. يمكنك إعطائي أي شيء – منديلاً مثلاً
- لا. لن أعطيك منديلاً
- حسناً. ربما صورةً ما
- الصور جيدة، ولكني سأعطيك باناييا[1] (أيقونة العذراء)

صُدمت قليلاً بأنه يريد إعطائي شيئاً يلبسه الأساقفة فقط. ولكني لم أفكر كثيراً بالأمر حينذاك

واصل الشيخ البحث وأخيراً أخرج باناييا من درج، وكانت أيقونة بلاستيكية بسيطة كان قد حصل عليها في ذكرى تدشين كنيسة القديس نيكن المستتيب[2]

- أريد إعطاءك هذه. خذها وعِظ بالتوبة
- "يروندا، أين سأعظ بالتوبة؟"، سألت وأنا متفاجئ مجدداً، "أفي الجبل المقدس؟"

وكذلك لم أفكر كثيراً لماذا أعطاني باناييا بالتحديد

- قال: "بعد الثلاثين"
- فكرت: "يبدو أنني سأصبح كاهناً بعد الثلاثين بحسب القوانين. لهذا قال الشيخ ذلك"

أتيت إلى قبرص من الجبل المقدس بعمر الرابعة والثلاثين، وأنا أتكلم منذ ذلك الحين. الآن فقط أدركت معنى كلام الشيخ فيلوثيوس. مع مضي الوقت أتذكر كلامه أكثر فأكثر وأرى بأن التوبة هي أساس كامل الإنجيل وكامل الحياة الروحية. لذلك، عندما أتى المسيح إلى الأرض فقد علَّمنا أن نتوب. علم هذا السر العظيم. ليست التوبة مجرد ندم على ما فعلناه، إنها تنطوي على توبة حقيقية وانسحاق وأسىً بسبب الأخطاء التي قمنا بها والخطايا التي ارتكبناها.

بالبكاء والحزن على انفصالكم عن الله فإنكم تجدون السلام وراحة النفس بشكل تدريجي وتهدَؤون. ما الذي يحدث حينها؟ يكتسب ذهنك وكيانك منظوراً مختلفاً للواقع. يكون المال والصحة مهمين بالنسبة لك في أحد الأيام، وفي اليوم التالي لا تعود هذه الأشياء تهمُّك، ولا تعود هي هدف حياتك. تتغير طريقة تفكيرك. هذا هو جوهر التوبة. إذا لم تتغير طريقة تفكيرك بل بقيت على حالها، فهذا يعني بأنك تقوم بالأعمال الصالحة خارجياً. أحياناً نقوم بالقليل من الصلاح فقط لنسكت صوت ضميرنا في داخلنا. مثلاً، لدي الكثير من الفرص لمساعدة الناس أو تكريس وقتي للصلاة، ولكني بالكاد أقوم بشيء ما، أقوم فقط بما يكفي ليكون لي الحق في أن أقول: "أنا أيضاً قمت بشيء ما". نحن لا نريد القيام بأقصى ما نستطيع، ولا نريد السماح للمسيح بتغيير كياننا. لذلك عندما كان بعض الأشخاص يرغبون باتباع المسيح حينما كان يعظ، ولكي يُظهر لهم بأن لقاءه كان يعني تغييراً جذرياً في كامل وجود الإنسان وكامل كيانه، كان يقول لهم أموراً تجعلهم يتجمَّدون في ذهول.

- يا رب، ماذا يمكنني أن أفعل لأتبعك؟
- أتريد أن تتبعني؟ حسناً. اذهب وبعْ ما تملك واتبعني

تجمد الرجل في مكانه بكل بساطة. "أذهب وأبيع كل شيء؟!". تماماً كما يقوم الجراحون بعمل شقٍ في الجسد ليروا ما في الداخل، هكذا فعل الرب بكلمته، فعمِل شقاً إلى داخل هذا الإنسان، إذا جاز التعبير، ليظهر أن حضوره في حياتنا وعلاقتنا معه ليست كنايةً عن أعمال صالحة خارجية، بل هي تغيير كامل في كياننا بأكمله. بهذه الطريقة فقط يحل السلام في نفس الإنسان، عبر تنمية التوبة في نفوسنا.

تبدأ التوبة بالندم، حين نبدأ بإدانة أنفسنا. ثم ننتقل إلى البكاء على أنفسنا. نشاهد الهوة التي تفصلنا عن الله – أين أنا من الله وكم أنا بعيد عنه. يا لغِنى المواهب والفرص التي أعطاني الله إياها، وكيف بدَّدت أنا كلَّ الغنى الذي تلقيته منه في فجور حياتي. وهكذا نبدأ بالبكاء وتعهّد الدموع، وبمعونتها نجد التوبة. فلنتعلم البكاء لنكتسبَ

توازناً روحياً. النوح، وخاصةً في الخلوة مع الله، هي فنٌّ كامل. إذا ما تعلمناه بدأنا بالنجاح روحياً. يجتذب النوحُ المسيحَ إلى قلوبنا. يأتي المسيح إلى قلوبنا المتواضعة التائبة، ويبدأ تغيير عظيم بالحدوث. نصبح مختلفين، وعندها يمكننا حقاً أن نصلي للرب بسلام.

بهذا يبدأ القداس الإلهي. هذا هو شرط حوارنا مع الله في الصلاة. إن لم يكن لدينا سلام فلا يمكننا أن نتواصل لا مع الله ولا مع البشر.

١. Panagia هي الأيقونة المستديرة لوالدة الإله، والتي يلبسها الأساقفة.

٢. القديس Nikon Metanoeite، عيده في ٢٦ تشرين الثاني/ ٩ كانون الأول. عبارة " Metanoeite" تعني "توبوا" ما يجعل أن الترجمة الحرفية لإسم القديس هي 'نيكن توبوا"، وفي العربية نسمّيه 'نيكن المستتيب'. سبب التسمية أن الرب حباه بموهبة الوعظ بالتوبة، وبفضلها امتلأ مستمعوه بالتوبة القلبية ومحبة الله. وعظ في أرجاء اليونان، متوسلاً إلى المسيحيين بلا كللٍ أن: "توبوا Metanoeite" حتى أصبحت هي الاسم الذي يُعرف به هذا القديس. أجرى معجزاتٍ وشفاءاتٍ كثيرةً ورقد عام ٩٩٨.

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol. “In Peace Let Us Pray to the Lord… A Second Talk On the Divine Liturgy”. Translation by Jesse Dominick. Pravoslavie.ru. 10/13/2021. ttps://orthochristian.com/142307.html